

مظاهر الحضارة النيوليتية في الجنوب الغربي الجزائري

~~~~~ سليمان صديقي \*

إن الباحث اليوم في الجنوب الغربي الجزائري لا يجد أية صعوبة في التأكد من مظاهر الحضارة النيوليتية في هذه المناطق وهذا ما تشهد عليه الأدوات المتنوعة من رؤوس سهام دقيقة، وجميلة ملتقطة من عدة مواقع، و رحي بمساحقها، وفؤوس مصقولة، وشظايا من الصناعة الفخارية، ورسومات صخرية، وقشور بيض النعام... (أنظر اللوحات المرافقة للموضوع) مواقع أغلبها على الهواء الطلق مما يعرضها إلى النهب والضياع والتشويه (الرسومات) من طرف الإنسان المعاصر. من جهة أخرى لعبت الظروف المناخية الصحراوية دورا في إخفاء الصناعة العظمية والبقايا الغذائية، بل وحتى بعض الصناعات الحجرية والفخارية يظهر عليها عامل التأثير المناخي خاصة على وجهها المقابل للرياح والأمطار والشمس ... يرى ليونيل بالو- (Lionel Balout) - " أن مفتاح ما قبل التاريخ لشمال إفريقيا يوجد في الصحراء، في الدراسة وعلى الخصوص في تحديد تاريخ صناعتها النيوليتية الشاسعة والمائلة " (1). أما - جينيت أوماسيب- (Ginette Aumassip) - فتقول حول النيوليتي في الجزائر بصفة عامة: " ان النيوليتي في الجزائر يظهر اليوم معقدا بشكل كبير ورغم أن بعض المناطق تبقى غير معروفة بشكل كامل فان جهات أخرى تم تحديدها جغرافيا وزمنيا (كرونولوجيا) وحسب رأيها أن النيوليتي دخل إلى الجنوب الجزائري في 7000 ق.م مع النيوليتي الصحراوي-السوداني الذي يظهر أنه مرتبط بموقد\*- (foyer) صحراوي أما في الشمال فلم يظهر إلا في 6000 ق.م. وابتداء من 5000 ق.م تزايد عدد السكان في بعض المناطق الصحراوية بشكل ملحوظ ربما لعامل استقرار المناخ الذي عرفه شمال الصحراء لكن كذلك بسبب وضع نظام إنتاجي" (2)

في جدول إحصائي وزع هـ.ج.هوجو. - (Henri J.Hugot) - مجموعة من الأدوات (تسع مائة وتسعة عشر أداة) التقطها في منطقة أولف جنوب شرق أدرار بالجزائر، حسب النسب المثوية جاء فيه: (3)

\* أستاذ مكلف بالدروس، قسم التاريخ، جامعة بشار.

| الأدوات       | النسب المئوية % |
|---------------|-----------------|
| - الشفرات     | 7.6             |
| - المحكات     | 18.3            |
| - أدوات خشنة  | 4.6             |
| - مثاقب       | 20.0            |
| - قزميات      | 23.9            |
| - نوايات      | 7.4             |
| - أدوات السحق | 3.7             |
| - أسلحة       | 1.8             |
| - فؤوس        | 3.3             |
| - رؤوس ورقية  | 0.2             |
| - متنوعات     | 9.2             |
| - المجموع     | 100% (919 أداة) |

من خلال الجدول السابق نلاحظ تنوع الأدوات الحجرية ومن مختلف مراحل عصور ما قبل التاريخ في موقع واحد، أكبر نسبة هي القزميات و المثاقب و المحكات، أما أدوات السحق التي تمثل العصر النيوليتي، عصر الاستقرار وانتاج الغذاء فنسبتها قليلة. نشير الى أن الجدول متبوع بلوحات لنماذج من هذه الأدوات وضعها الباحث فهي أدوات مشدبة وليست مصقولة.

ويذكر - هـ. هوجو - : " خلال اقامتي في أولف في الفترة 1949- 1953 بدأت دراسة منهجية لما قبل التاريخ في المنطقة التي كان قد قام بتنقيبها قبل ذلك الملازم - مينيت دوسان مارتان- (Minette de St Martin) - ثم -م. ريجاس- (M. Reygasse) - لقد تأكدت من أهمية ترسيبات الزمن الجيولوجي الرابع وأنها كانت في أغلب الأحيان ترسخ واثق ما قبل تاريخية قيمة. في نفس الوقت كان لي الحظ أن انضم الى فرقة هولندية كانت قد استكشفت المنطقة عدة مرات وكان رئيس البعثة العلمية -ح.ب.ك.هان- (H.P.C.Haan) - من روتيردام - (Rotterdam)\* - ما لفت انتباهنا أكوام مكدسة نموذجية من الغرانيت متأكلة حيث اكتشفنا أن الملاحج الطبيعية المتكونة من كتل ضخمة فوق بعضها هبطت مع مرور الزمن الى سفح الجبل وكانت منذ زمن بعيد جدا أماكن للسكن. على أي حال وجدنا سطح الأرض مغطى بالحجارة المشدبة، بعظام مكسرة أو مفحمة، بقطع من الفخار ... لقد كانت مواقع هؤلاء قرية على خط ضيق من الأرض بين ضفاف البحيرة وسفح الجبل. بالإضافة إلى ذلك التقطنا فخارا وسليما ومحملا غريبا - (un brancard) - من الخشب إلى جانب كمية كبيرة من قطع الفخار المكسر وأدوات أخرى من المحتمل أنها تعود كلها إلى ما قبل التاريخ "(4).

إن منطقة الجنوب الغربي الجزائري تتميز بارتفاعها عن سطح البحر بصفة عامة وكثرة أوديتها ومرتفعاتها من جبال وهضاب. لقد بينت الدراسات وجود بحيرات جافة وأحواض نهرية هامة بهذه المنطقة كان لها الدور الأساسي في تسهيل النشاط البشري والحيواني والعلاقات الإنسانية فأودية المنطقة لازالت تعرف الى يومنا هذا فيضانات كبيرة من حين لآخر مثل ما كان في شهر فيفري 2009\*\* - حيث تم التخلص من أكثر من 1.5 مليار م<sup>3</sup> من المياه من سد جرف التربة الواقع في

مجرى واد **قير** كما عرفت كل أودية الجنوب الغربي الجزائري فيضانات ماثلة ( زوسفانا، بشار، كسيكسو، قروط، مسور...).

لقد وضعت الباحثة م.هـ. أليمان- سنة 1957 مصطلحات خاصة بالتسلسل الزمني لتكوينات الزمن الجيولوجي الرابع للمنطقة وأيدها - ج. شافايون-(J.CHAVAILLON) و- كونراد-(G.Conrad) سنة 1959 وهي ثلاثة أقسام كبرى خلال الزمن الجيولوجي الرابع أصبحت ثابتة بشكل نهائي من طرف ج. شافايون سنة 1961، كل قسم يجمع دورتين رسوبيتين :

الزمن الجيولوجي الرابع القديم — الدورة العايدة

— الدورة المازرية

الزمن الجيولوجي الرابع الأوسط — الدورة التاوريرتية

— الدورة الاوغارتية

الزمن الجيولوجي الرابع الحديث — الدورة الساورية

— الدورة **القيرية**\*- وهي الفترة النيوليتية الاطار الزمني لموضوعنا

و يضاف إلى مرحلة الزمن الجيولوجي الرابع الحديث المرحلة الحالية أي التي نعيشها اليوم و هي التي تأتي بعد المرحلة **القيرية**. الاصطلاحات التي تبناها. ج . كونراد . سنة 1969 تختلف قليلا عن السابقة. لقد استعمل الباحث العبارات التالية : — فيلا فرانشي — قريب — (plio — villafranchien) -، فيلا فرانشي أعلى — (villafranchien supérieur) — بلايستوسين أوسط — (pléistocène moyen) — و — هولوسين — (holocène) — أما الباحثة ف. بوشي (F.Beucher) — فقد استعملت في دراستها لغبار الطلع و الطبقات الجيولوجية في المنطقة اصطلاحات - ج. شافايون- مع التذكير بالتسلسل الزمني الذي وضعه- ج. كونراد - .

**العصر الحجري الحديث أو المرحلة القيرية.**

#### **1- الخصائص الطبيعية العامة:**

"لقد كان الانجراف **القيري** جد هام حيث قام بتهدم جزء كبير من الرسوبات الساورية. في سطوح هذه الانجرافات توجد صناعة حجرية وصفتها- نيكول شافايون- باسم صناعة " الطابع الحيمامي". أما الفترة المتطابقة للرسوبات **القيرية** فإنها المرحلة الرطبة الأولى ثم المرحلة الرطبة الثانية. ترتبط بالرسوبات **القيرية** مختلف الحقول النيوليتية. نسجل كذلك التطور الهائل للكثبان الرملية وانتشار الظاهرات الريحية في نهاية الدور **القيري**." (5)

#### **ستراتيغرافية وادي قير:**

"يتميز وادي **قير** على الخصوص بتكويناته الرسوبية النهرية **القيرية**. والعامل الأساسي لذلك هو عرض الوادي وقوة مياه النهر. تقع التراكمات الأولى لهذه المرحلة على مستوى ( التلوق ) الحالي وتسطير التراكمات الأخيرة على الوادي ب 4 إلى 5 أمتار. إن دلائل هذا السطح كثيرة في وادي **قير** لكن التكوينات **القيرية** ليست صلصالية ولا نجد في قمته أية قشرة. تغطي الرمال والغرين كل عرض وادي **قير**، ولم يخفر الواد الحالي إلا قناة ضيقة في هذه الكتلة الرملية. بعد ذلك قام الانجراف والتغيرات الريحية وظهور الكثبان الرملية الصغيرة، كلها عوامل قامت بتغيير المظهر الأصلي للسطح **القيري**. إن الرسوبات **القيرية** تظهر بوضوح في شبكة منونات كما نشاهدها في وادي **قير** وروافده، هذا السطح الأسفل نجده

محززا بعامل الانحراف الحالي ويشكل أجرفة واد **قير**. في واد الملاح، أحد روافد واد **قير** تنتشر في المنطقة الرسوبات **القيرية** وتغطي الرسوبات الساورية القديمة. إن قمة السطح **القيري** تغطيه كثنان رملية صغيرة ذات رمال صفراء أو داكنة. يظهر أن الرسوبات **القيرية** في منطقة وادي **قير** ترتبط بمناخ نصف جاف مع بعض الفترات البُحرية: ترسيب بطيء، منظم، خلال مرحلة مناخية أحيانا تميل إلى الرطوبة لكن دون تغيرات مفاجئة. في نهاية المرحلة **القيرية** ساد مناخ جاف انتهى بتراكم الرمال والغرين. (6)

#### المناخ خلال المرحلة **القيرية**:

"خلال مرحلة الانحراف **القيري** \*، كانت البحيرات و المجاري المائية جد نشطة . كما أن الغطاء النباتي على الكثنان و على أجرفة الأودية، على سفوح الجبال و في ضايات الحمادات كان كثيفا و كانت تنمو نباتات متنوعة تأوي إليها حيوانات كثيرة. خلال الترسيب **القيري** تغير المناخ تدريجيا نحو الجفاف ، و عادت المنطقة مرة أخرى صحراء تشبه الصحراء التي نعرفها اليوم. ما نعرفه على الفترة **القيرية** بحثنا إذن على أن نتخيل مناخا رطبا أولا ثم جافا. في وادي **قير**، يظهر أن المناخ قد تطور خلال تكوين السطح **القيري** من الرطوبة الى الجفاف. في وادي الساورة و خاصة في جبال أوغارتا يظهر لنا ان المناخ بقي رطبا الى نهاية الدورة **القيرية**. في وادي مسعود جنوب لقصابي عرف المناخ تعاقب فترات رطبة و فترات جافة. لكن الرطوبة كانت كبيرة نسبيا في بداية الترسيب **القيري**. إذا كان وجود المستنقعات الصغيرة يشير إلى نوع من الرطوبة المحلية، فإن ذلك ليس مؤشرا مناخيا كافيا لأننا لازلنا نشاهد اليوم من حين لآخر في هذه المنطقة من الصحراء بركا مائية يمكن أخذ مياه سد جرف التربة التي تشكل بحيرة معتبرة كمثال في مناطق **قير** التي يسودها الجفاف اليوم. غير أن وجود التوف (les tufs) - بكميات كبيرة وبسبك غليظ يشير إلى مناخ تميز ببعض المراحل الرطبة. هل يمكن اعتبار الفترة الحالية هي المسؤولة على إتلاف تربة الترسبات **القيرية** الذي تمخض عنه لون برتقالي أو داكن؟ إن ذلك صحيح بالنسبة للمستويات العليا للسطح **القيري**. لكن في ما يخص المستويات السفلى و الوسطى فمن المحتمل أنها اتخذت لونها سواء خلال مرحلة الترسيب **القيري** \* أو ربما قبل تكوينها أي خلال مرحلة الانحراف **القيري** \* - .هكذا إذن ، فالدورة **القيرية** يظهر أنها تميزت بمناخ جد رطب في بدايتها ثم تحولت تدريجيا إلى المناخ الجاف خلال الترسيب متأثرة بالتذبذبات المناخية من نموذج جاف - نصف جاف. (7)

#### 2- الخصائص الحضارية للمرحلة **القيرية**:

تعتبر الدورة الرسوبية **القيرية** من المراحل الهامة والتميزة في ما قبل التاريخ في الصحراء. هذا القطر الذي يعتبر اليوم من أكبر الصحاري كان في زمن مضى كثيف السكان بل ومنطقة عبور بصفة شبه مستمرة.

"لقد اكتشفت - ن. شافايون-(N.CHAVAILLON) صناعة سمتها الصناعة ما بعد العاترية أي " صناعة ذات طابع حمامي " وهي صناعة معروفة في مناطق بني عباس كما اكتشفت صناعات نيوليتية. وخلال عملية تنقيب قامت بها هذه الباحثة اكتشفت كوخا من العصر الحجري الحديث مدفونا بعمق 1,80 م تحت رسوبات بُحرية حيث ساعدها في دراسة هذا الاكتشاف - ج. شافايون- كما وجد الباحثان في الموقع، مواقد و آثار لسكنات تعود إلى حضارة العصر الحجري الحديث في ضاية كبيرة بحمادة **قير** وكذلك في جماعر (تراب صلصالي - les marnes-) بني عباس وفي واد بوعلي شمال رقان. غير أن العصر الحجري الحديث الصحراوي معروف خاصة بحقوله الجميلة على السطح وبالعدد الكبير من القطع المنتشرة تقريبا في كل مكان تشير إلى العبور المتواتر إلى إقامة القبائل النيوليتية. (8)

## صناعة ذات الوجه الحمامي:

يذكر -ج. شافايون حول هذه الصناعة : "في سنة 1963 وجدت الباحثة- ن. شافايون- عددا كبيرا من الأدوات الحجرية منها الأصلية ومنها المتعددة الجوانب ذلك على الضفة الغربية لوادي الساورة في المكان المسمى - حمامة - بضواحي بني عباس. عدد كبير جدا من النوايات من النموذج المستيري- اللوفالوازي المتطور جدا، بعضها لازالت تحافظ بشكل واضح على الخصائص اللوفالوازية\* والبعض الآخر تحتوي بالعكس على آثار تقصيب غير منظم أعطى شظايا ونصلا وأحيانا نصيلات. من بين الأدوات المستخرجة من هذه النوايات خاصة نذكر عددا كبيرا من المكاشط من نماذج متنوعة إلى جانب النوايات والمسننات الكثيرة العدد كذلك والشظايا والرؤوس اللوفالوازية تبرز الطابع القديم لهذه الصناعة. عكس ذلك نجد أن إضافة مجموعة كبيرة من القطع، ووجود كمية هامة من المحكات والمحتات وبعض النصلا ونصيلات غليظة ذات ظهر منهك ما يستدعي ثقافة أكثر تطورا. هذه الصناعة لا يمكن خلطها بالحضارة العاترية لعدة أسباب: أولا لوضعها الاستراتيجي فوق منبسط انجراف خارقا السطح في الأساس الذي يوجد فيه العاتري على مسافة بضع كيلومترات من حمامة، ما يستبعد كل خلط. ثانيا الصناعة نفسها تختلف عن العاتري، طريقة التقصيب المتطورة بل والطريقة اللوفالوازية لبعض النماذج، والنسب بين الأدوات متفاوتة حيث أن المكاشط هي الغالبة، خاصة وأن الأداة المميزة للحضارة العاترية وهي القطع ذات العنق غير موجودة تماما. هذه المجموعة الأصلية سابقة للعصر الحجري الحديث. في موقع حمامة جماعر رمادية تحتوي على رؤوس سهام وشقف من الخزف تعود الى العصر الحجري الحديث، غطت في بعض الأماكن قطعا من " الوجه الحمامي" والتي كانت على سطح الرمال الساورية. مسطحة انجرافية أخرى تعلو ببضعة أمتار الطبقة التي تحتوي على أدوات من " النموذج الحمامي" نجد فيها مئات النصيلات ذات الظهر المنطرح وحادة جدا مشابهة لتلك التي نجدها في مواقع العصر الحجري الحديث. هذه بعض النصيلات حملتها المياه في الموقع الحمامي لكنها متميزة عن بقية الصناعة بحيث أنها خالية من الزنجار - الصدأ - (أكسيد البرونز) الذي يفصل بين شظايا المساحات المغطاة بغطاء من زنجار أبيض سميك نوعا ما. خلاصة القول، يوجد في منبسط انجرافي للسطح الساورى، صناعة وسيطة من حيث موقعها الكرونولوجي بين العاتري والعصر الحجري الحديث. تتميز بتقصيب من وع لوفالوازي متأخر ومجموعة من القطع القديمة جدا التي تضاف إليها قطع أكثر تطورا." (9)

في جبال أوغارتا تؤكد الباحثة- فرانسواز بوشي (Françoise BEUCHER)- : "أن فكرة -ج. شافايون- حول الاحتلال الأكيد والثابت للإنسان النيوليتي لهذه المنطقة حيث وجد بيئة ملائمة للعيش على ضفاف بحيرة. دون شك خلال حقبة نصف جافة. هذه الفكرة لا نقبلها إلا في ضوء معطيات لقاحية - (palynologiques) - والتعبير بلفظة الإمطار - (la pluviosité) - والمفاهيم المختلفة: نصف جاف، شبه جاف، جاف ولا نقبلها إلا بشرط النظر في الظرف المناخي بالأحرى شبه جاف. كمية التساقط بدون شك أكبر من كمية الأمطار الحالية، لكن بمعدل 200 إلى 300 مم سنويا." (10)

## نماذج من المواقع والأدوات النيوليتية :

توفر المواقع المنتشرة بعدد كبير على السطح صناعات متنوعة من العصر الحجري الحديث، إن هذه المواقع متواجدة في كل السطوح وفي كل المسطحات الانجرافية. غالبا ما نجد قطعا من صوان العصر الحجري الحديث في طبقة السطح القيري.

يقول -ج. و. ن. شافايون- : "في سنة 1957، في خنق التلاية على الخصوص استطعنا أن ندرس عمق كوخ مدفون تحت أكثر من متر تحت الرسوبات القيرية، تحتوي على عدد من القطع كافية للسماح بدراسة تصنيفية" (11). "إن صناعة هذا الموقع تحتوي على رؤوس سهام من نماذج متنوعة ( برج إيفل - Tour Eiffel)، رؤوس ذات الوجهين مستطيلة الشكل، بيضوية أو مثلثة ذات حزة قاعدية)، كما تحتوي على نصيلات رقيقة ذات ظهر منطرح وعدد كبير من

القطع الحززة ( نصلات، نصيلات وخاصة شظايا ذات حزات كثيرة) ونوايات ذات نصيلات تحتوي على مخططات الطرق. أما المحتات والحجارة القزمية فهي نادرة لكن من جهة أخرى تنتشر المحتات الصغيرة. في مواقع أخرى، نجد صناعة كاملة للعصر الحجري الحديث، بعدد كبير من المحكات ذات الحجم الصغير، نماذج متنوعة لرؤوس السهام وبكمية كبيرة وأجزاء من قطع غليظة من الفخار مزينة بأشكال مختلفة. نجد في كل المناطق صناعة الكوارتزيت، متكونة من شظايا غليظة مهذبة قليلا، إلى جانب مكاشط ومناجر متقنة الصنع، ومطاحن ومساحق وشظايا ورؤوس سهام. أما أدوات الزينة فتتشكل من أجزاء من قشور بيض النعام منقوشة أو محولة إلى مجوهرات وقطع من المغرة الحمراء حيث عثر على كثير منها على أرض كوخ العصر الحجري الحديث في خنق التلاية. "(12)

حول حقول العصر الحجري الحديث في الصحراء يقول - ج. بوركار- (J.Bourcart) - " أنه توجد مجموعة من الحقول تحتوي على أدوات من الصوان المشذب كما بين الظروف الطبقيّة الجيولوجية التي تظهر فيها هذه الأدوات. من تونس إلى تيدكلت نجد أدوات الصوان على سطح الرق، في ورشات متخصصة في نموذج واحد. جغرافيا تتركز في الضايات- (dhayas) - قرب الآبار وعلى طول الطرقات المرسومة أو الموائج- (les pistes) - الأدوات من نموذج ورقلة مشدبة في الوجهين تقع تحت الكتبان وفوق القشرة الأرضية ذات التكوين الحديث. في بعض الاستثناءات النادرة يستعار الصوان لحصى الرق المنقوشة والمزججة بالأسود أو الأحمر. (على ممر الزمن تتخذ لون الأكسيد) . الأدوات لا تتآكل إلا قليلا بسبب الرياح لكن لا تصدأ أبدا. عكس ذلك، الرؤوس من نموذج المضاب، نموذج زوسفانا لجوتيي - (Gautier) - نجدها في غرين أحمر - (limon) - تحت قشرة جبسية لكن فوق الطين. يظهر أن الصوان ليس من المنطقة ومتصدأ بشكل ضئيل. "(13)

يقول - بالدور غابرييل- (Baldur GABRIEL) - : " أنه خلال رحلاته عبر الصحراء وجد تراكمات حجرية تنتشر في السهول الصحراوية وهي بقايا سكنية لرعاة البقر الرحل في العصر الحجري الحديث. إنها مواقد لتحضير الطعام دون استعمال الأواني الفخارية، إذ تسخن الصخور على النار ويشوي عليها اللحم مثلا. واعتمادا على دوريتها، نميز ثلاث مراحل. المرحلة الأولى امتدت ما بين 8500 إلى 5800 ق.م. ثم تكاثرت هذه التراكمات في المرحلة ما بين 5800 إلى 5300 سنة ويعني هنا أن حركة الرعاة قد اشتدت ثم أصبحت أقل خلال المرحلة النهائية التي امتدت إلى 3800 سنة بسبب الجفاف المتزايد. بعد 3800 أصبحت سهول الصحراء غير صالحة للعيش فاتجه السكان نحو المرتفعات الوسطى والجنوبية وإلى وادي النيل، وإلى الأطراف الجنوبية للصحراء حيث تركز في المناطق الملائمة أي في الواحات الحالية. هكذا فواحات الصحراء يعود أصلها إلى هذه الفترة، فترة بداية جفاف الصحراء في الألف الثالث ق.م. "(14) إن وجود هذه الأكوام الحجرية تبين أن سكان المناطق الصحراوية وجدوا في هذه السهول، التي هي صحراء اليوم (رقوق)، كل مصادر العيش من مياه وغطاء نباتي ومناخ ملائم.

\*وادي زوسفانا:

يعتبر واد زوسفانا أحد الرافدين الرئيسيين، إلى جانب واد قير، المومنين لواد الساورة، فإذا كان واد الناموس ينبع من جبال القصور بضواحي عين الصفراء فإن واد زوسفانا الموازي له تقريبا ينبع من الأطلس الأعلى المغربي ليلتقي مع واد- قير- النابع من نفس المصدر في بلدية- إيقلي- على مسافة 160 كلم جنوب مدينة بشار. ومن منطقة التقاء الأودية السابقة الذكر ينطلق واد أكبر باسم جديد وهو واد الساورة متجها جنوبا إلى منطقة أدرار، حيث يحمل اسم واد مسعود انطلاقا من منطقة لقصابي جنوبا.

يرى الباحث - جولو- (Jouleaud) - في نموذج- زوسفانا- مدعما رأي- بوركار - حيث يقول: " توجد أدوات صحراوية من نموذج - زوسفانا- والتي تظهر أنها أقدم من غيرها: اتخذت قليلا من لون الأكسيد (patine)، وهي من النموذج الخشن،

غير متقن، مشذبة في وجه واحد، نجدها في غرين تغمره قشرة جبسية من أصل باطني. بفضل الباحث - بوركار - يمكن لنا ولأول مرة أن نميز تسلسلا تاريخيا مبنيا على اعتبارات علم الطبقات الجيولوجية - "Stratigraphique" - (15)

**\* واد الناموس:**

ينبع من جبال القصور بالأطلس الصحراوي متجها جنوبا حيث يمر على مسافة 160 كلم شرق مدينة بشار. يقول - ج. بوركار - : " في الرق القدم لواد الناموس وجدت أدوات من الصوان، أجزاء صغيرة من الفخار ومن قشور بيض النعام. تحت هذا نجد صلصالا صلبا جدا وفوق ذلك نجد كتيبان العرق الكبير. " ويضيف هذا الباحث قائلا: " لا يمكن أن نتقبل أن هذه الأدوات توجد فوق السطح بسبب تصنيف قامت به الرياح، لأنها اختلطت بحصى الرق وهي مثلها لا تلتقي أبدا في الصلصال التحتي". (16). يذكر - ج. بوركار - " أن مواقع العصر الحجري الحديث - (le néolithique) - هي كثيرة جدا في الصحراء... وفي توات - (Touat) - تنتشر مواقع ما قبل التاريخ بكثرة" (17)

" إن الموقع الغني في بوخشبة، على الحدود الشمالية للصحراء، نجد فيه على الخصوص وبشكل ملحوظ - القفصي النهائي - بعدد كبير من الأدوات من قشور بيض النعام، بعضها مزين برسومات، يمكن أن تكون أجزاء من أواني، عدد كبير من الحليقات هي أجزاء من عقود - (des colliers) - أو أساور... لكن بما أن القطع المختلفة الملتقطة هي من السطح فإنها ربما ليس لها نفس العمر. " (18)

يؤكد هذا القول الباحث - فيرنو - (Verneau) - بقوله: " أما عمر الأدوات، فمن الصعب تحديده بدقة. صحيح أننا نلتقط في الصحراء عددا كبيرا من الأدوات من نموذج العصر الحجري القديم، لكن نجدها مختلطة مع أدوات من نموذج العصر الحجري الحديث" (19)

ما يمكن استخلاصه هو عدم تأكد الباحثين أحيانا من تصنيف بعض الأدوات ومن تسلسلها الكرونولوجي، وهي فكرة يذكرها كثير من الباحثين في علم ما قبل التاريخ والذي لا زال في حاجة إلى كثير من الدقة والجهد الكبير خاصة وأن مؤرخ العصور الحجرية يعتمد على علوم لا تشكل مجموعة متماسكة من حقائق قارة وصحيحة وبالتالي فإن كثيرا من الاستكشافات الجديدة تنقض نظريات سابقة كما نجد اختلافات بين الاختصاصيين ولو مؤقتا أحيانا، وقد مثل أحدهم عمل الباحث في ما قبل التاريخ المعرض إلى الانتقاد بالبنائيات اليابانية التي يهددها الزلزال في كل لحظة.

#### **\*الموقع الاستراتيجي للصناعات البشرية:**

يشير ج. شافايون بقوله: " لقد أشرنا إلى وجود حقل من حقول ما قبل التاريخ له " مظهر حمامي " على مساحة لانجراف واد صغير، ذلك على ارتفاع حوالي عشرة أمتار من واد الساورة. لقد عاش الإنسان الساورى على هذا السطح خلال مرحلة يمكن تحديدها كما يلي: الحدود السفلى: السكن جاء بعد إنشاء المسطحة العليا في السطح الساورى، لكن يمكن أن يكون معاصرا لإنشاء المسطحة السفلى. بعبارة أخرى أن هذه القبائل الساورية عاشت في حوالي نهاية مرحلة الانجراف القيري. الحدود العليا: الحقل الحمامي كان قبل الجمعرات السوداء التي تغطي المسطحة السفلى للسطح الساورى، هذه الجمعرات السوداء التي يظهر أنها تعود إلى نهاية الترسيب القيري. ومن المحتمل أن استيطان الإنسان لهذا الوادي الصغير بموقع حمامة معاصر لنهاية فترة الانجراف القيري. بعد هذه " الفترة الحمامية " عرفت حضارات العصر الحجري الحديث بصناعاتها الفخارية وحجارها المصقولة تطورا كبيرا. في خنق التلاية وفي بوعلي ( واد مسعود، توات ) تقع حضارة العصر الحجري الحديث من الجانب الاستراتيجي بشكل واضح في بداية الترسيب القيري. مع ذلك يمكن القول أن الحقول الكثيرة العدد والمنتشرة على السطح ليست كلها من نفس الفترة وتدرج طوال الدورة القيري. غير أن في بني عباس، نعرف أن مسكن العصر الحجري الحديث مؤرخ في نهاية الترسيب القيري وكان قبل الانجراف الذي تبعه. " (20)

## \*الرسومات الصخرية و قبور التومولوس\*:

تزخر منطقة وادي قيسر و الساوره بمصادر مادية أخرى ثمينه تعود إلى عصور ما قبل التاريخ وتتمثل هذه المصادر في الرسومات "ليس من السهل تقييم الرسومات الصخرية و إعطائها المحتوى الذي تستحقه، و ذلك لأن الخيال و التكهن في تفاسير مواضيع هذه الرسومات يلعبان دورا هاما، و الذي لا شك فيه هو أن هذه الرسومات و النقوش تعبّر بصدق عن مظاهر إنتاج فني عصور ما قبل التاريخ المغربية الذين سجلوا لنا مظاهر الحياة اليومية كتلك المجتمعات التي كانت تضمهم بين صفوفها. كما أن الأسلوب الذي عولجت به مثل هذه المواضيع التي لازالت آثارها ماثلة على واجهات الكهوف و الصخور. و التقنية التي استعملت فيها يدلان بصدق على أن الفنان الذي أنتج هذه الرسومات و النقوش لم يكن هاويا فحسب بل كان متحترفا يتقن عمله أحسن إتقان". (21).

إن الجنوب الغربي الجزائري بصفة عامة يزخر بعدد كبير من هذه الرسومات التي تم إكتشافها في "تيوت و مناطق عين الصفراء (1847) و في البيض (1899) و في تاغيت (1913) و منطقة آفلو (1936) و في جرف التربة (1949) و جبال أوغارتا (1950) و مرحومة (1951) و واد الزقاق قرب حاما قيسر (1967)" (22) مواقع متنوعة و ذات أهمية علمية كبيرة إذ لازالت لم تعرف كل محتوياتها إلى جانب طريقة رسمها و تلوين بعضها.

"و تشتمل - تاغيت - على ثمانية مواقع للرسوم تنتشر على مسافة 30 كلم في وادي - زوسفانا - أهمها تلك الموجودة في تاغيت التحتانية و هي شبه تخطيطية، تحتوي كلها تقريبا على رسومات حيوانات أغلبها بقرات إذ تعود إلى الفترة البقرية - (Bovidien) - حسب - ج - أوماسيب - (G. Aumassip) - و هي من أجمل فترات فن الرسومات الصحراوية الملونة". (23)

"أما موقع مرحومة الذي اكتشفه النقيب - فيلالونجا - (Villalonga) سنة 1951، فإن الرسومات توجد في كتل صخرية مهدمة في واد كله حفريات، ترى - ه - أليمان - ألها مرت بثلاث مراحل، مرحلة الطبيعيين - (Naturalistes) - بخطوط منقطة تبين بقرات بمظهر جانبي، و مرحلة الرسوم المنقطة كاملة تظهر النعامة في أغلبها إلى جانب الإنسان، و مرحلة الخط الخفيف لرسم الخيلية - (Caballins) - على الخصوص . رسوم مرتبطة بطقوس الصيد والخصوبة. المرحلتان الأولى و الثانية كانتا معاصرتان لفترة رطبة مرتبطة بتكوين السطح الأخير لواد الساوره" (24).

"أما حقل - واد الزقاق - الواقع جنوب العبادلة، فهو معروف بالأواني العديدة ذات الأسفل الذيلي وعنق و جوانب مرسومة و مزينة بواسطة المشط، بعض الأواني تحيط بها قطع صغيرة من قشور بيض النعام، و تعود إلى حوالي 5400 ق.م لقد تم اكتشاف إناء مماثل قرب الرسومات الصخرية في تيوت جنوب عين الصفراء" (25).

في جبال أوغارتا تنتشر الرسومات من زاوية خنق التلاية و واد مرلوك في اتجاه الشمال الغربي إلى رأس الواد و نجدها عادة في كتل مهدمة أو على الجوانب الصخرية، الرسوم القديمة تصدأت و اسودّت لكن الحديثة بقيت على حالها. إن التصدأ هذا له علاقة بقدوم الرسومات و عرضها أمام عوامل طبيعية معروفة. تقول م.هـ - أليمان - (M.H.Alimen) "لم نلاحظ وجود الصناعات بواد مرلوك بينما في خنق تلاية الواقع في الجنوب الغربي فإن الموقع غني جدا بالأدوات لاسيما أدوات العصر الحجري الحديث". (26).

"إن تقنية الرسومات متنوعة، منها الرسومات المنقطة، في كامل المساحة أو في الجانب ، بعضها تعرضت للتفريغ في كامل المساحة و التي تم صقلها، لكن التفريغ و الصقل سبقهما تنقيط تخضيري، و أخيرا مجموعة أخرى من الرسومات تحتوي فقط على خط منقوش بسيط. حيوانات كثيرة يصعب التعرف عليها. من بين التي يسهل التعرف عليها بسهولة نذكر: الفيلة، الغزلان، الكبش و على رأسه دائرة أو قرص، الأحصنة، السنوريات، البقرات. بعض الرسوم لإحتمال أنها تحتوي على نباتات

و في أحد الرسوم الغريبة نشاهد تشبيكا زهريا بخطوط ملتوية. إن كثرة البقريات في رسومات واد القبة تشير إلى حياة رعوية ذلك لوفرة المياه. كما تبين الرسومات مشاهد للصيد بمساعدة الكلاب الأليفة." (27)

" تجدر الإشارة إلى أن مواقع الرسومات في مرحومة الواقعة على مسافة 250 كم جنوب بشار، نجدها على ضفاف واد هام وكبير كان بدون شك و في كل الفترات مكان عبور و استقرار، بينما في مواقع جبال أوغارتا نجد الرسومات في مكان مهجور برأس الواد، في منطقة غير ملائمة للاستقرار و يظهر أنها لم تكن مسكونة. إن رسومات مرحومة و جبال أوغارتا تنتشر على مسافة حوالي 100 كلم نحو الجنوب و الجنوب الغربي. و أخيرا، نشير إلى موقع آخر بين بني عباس و كرزاز على مستوى منطقة - الماها- في هذا المستطيل الطبيعي المصقول بعامل الرياح، قام الإنسان بنقش رسومات بشرية و حيوانية يبرز فيها الجمل." (28)

"غير أن هذه الرسومات الصخرية المنتشرة في الجنوب الغربي الجزائري متصلة بشكل دائم بالعصر الحجري الحديث ذي الطابع القفصي، و نستثني من ذلك كل صناعة أخرى من نموذج العصر الحجري القديم الأعلى، و العصر الحجري الوسيط (الميزوليتي) أو العصر الحجري الحديث. باختصار فالمشكل يرجع إلى معرفة هل أن أعرق الصخور المنقوشة في القدم هي سابقة للعصر الحجري الحديث أم لا، و بصفة عامة فإن الطبيعيين منهم - م. بول- (M.Boule) - و سولينياك- (M.Solignac) - و - ل. جولو- (L.Joleaud) - و بعض الباحثين في ما قبل التاريخ منهم - ه. كوهين- (H.kühn) - أجابوا بنعم و أرجعوا الرسوم القديمة إلى العصر الحجري القديم الأعلى (القفصي) بينما الأب - ه. بروي- (H.Breuil) - كان أكثر دقة حيث استعمل عبارة ما بعد الباليوليتي - (épipaléolithiques) - " (29).

إلا أنه، و حسب ما اطلعنا عليه في كثير من البحوث، فإن أغلب الآراء تنسب الرسومات الصخرية إلى العصر الحجري الحديث. إن مواقع هذه الرسومات تبين بأن منطقة وادي قير و الساورة كانت حلقة وصل بين المناطق الصحراوية الشاسعة شرقا و غربا و بين شمال إفريقيا و المناطق الجنوبية بصفة عامة وذلك عبر مراحل ما قبل التاريخ، ما يؤسفنا أن هذا المتحف الطبيعي المتواجد بالصحراء الجزائرية هو معرض للتشويه و الفساد و الإهمال من طرف أشخاص يجهلون كل الجهل قيمة هذه الرسومات التاريخية.

"خلال الفترة ما بين 14 أكتوبر 1966 إلى 27 أبريل 1967 وبنصيحة من الباحث -ه. لوط (H.Lhote)- قام العقيد - ليهورو (Lihoreau)- بالتنقيب في عدد كبير من قبور التومولوس المنتشرة في وادي قير ومنطقة جرف التربة. ويذكر هذا الضابط المهتم بما قبل التاريخ أن النقيب - فيلالونجا- (Villalonga)- هو الذي بدأ هذه الأبحاث قبل وفاته وذلك باكتشافه داخل أحد التومولوسات في جرف التربة صخورا تحتوي على رسومات لأحصنة ملونة بمغرة حمراء حيث نقلت هذه الصخور الأربعة - (les dalles)- إلى متحف البارود." (30)

"وعندما تولى الأستاذ- ل. بالو- إدارة متحف - البارود- طلب من البيطري- إيسيرانديو (Esperandieu)- أن يدرس هذه الصخور الأربعة التي تحتوي على رسومات حيوانات منها ثمانية أحصنة يعود تاريخها إلى ما قبل مجيء العرب أي ليست من السلالة المشرقية حسب هذا الباحث وبالتالي فالأمر يتعلق بفرس المغرب- (les Barbes) - لكن مكتشف هذه اللوحات " لم يعط أية مؤشرات حول ظروف الاكتشاف أو نوع التومولوس الذي استخرجت منه وهو ما يتأسف له كل باحث في ما قبل التاريخ حيث أن دراسة هذا الاكتشاف الهام تبقى ناقصة جدا. في أبريل 1966 عاد العقيد- ليهورو- (Lihoreau)- إلى بشار ليعيد البحث والتنقيب في مجموعة من التومولوس القديمة المكتشفة من طرف- فيلا لونجا- (Villalonga)- إذ بعد استخراجها قام بوصفها كما حاول اكتشاف تومولوس آخر به غرفة الميت ولم يفتحه أحد من قبل." (31)

"لقد حضر الباحث - شامبولت-(Champault)- وزوجته مرة مع النقيب - فيلالونجا-(Villalonga)- في إحدى تنقيباته لإثنين من التومولوس حيث ذكرت السيدة- شامبولت - أنه وجد داخل التومولوس الأول (رقم 1) حجرة منقوشة قرطاجية تمثل باخوس-(Bacchus)- (اله الخمر عند الرومان) وتظهر الصورة الفوتوغرافية التي تحتفظ بها هذه السيدة النقيب - فيلالونجا- أمام هذا التومولوس الذي يحتوي على بابين متينين. أما السيد- شامبولت- فقد صرح بأن التومولوس رقم 1 الذي شاهده خلال التنقيب، يحتوي على خطوط عمودية ملونة بمغرة حمراء على صخور-(les dalles)- مدخل غرفة الميت-(la chapelle)- وقد ذكر العقيد- ليهورو- أن هذه الخطوط موجودة في الضريحين. بعد أيام عديدة من تنقيبات - فيلالونجا- زار الجنرال - كينار-(Quenard)- الضريحين وعثر في أحد القبرين على خاتم من فضة وقد كان الهيكل العظمي للجنة لازال موجودا. أما الحجرة المنقوشة وحسب - م. كامبس (M.Camps)- فلها موجودة في متحف الآثار بالجزائر العاصمة وليس بمتحف البارود." (32)

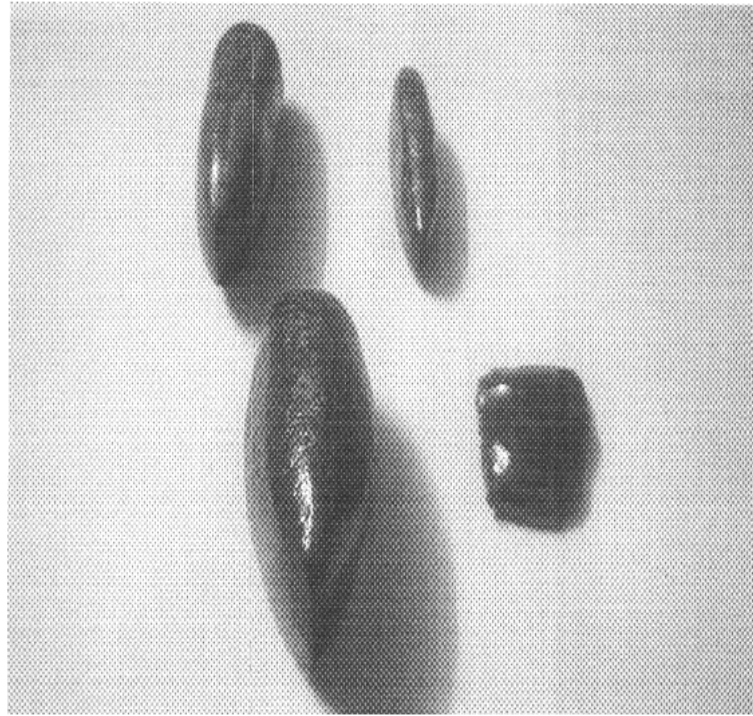
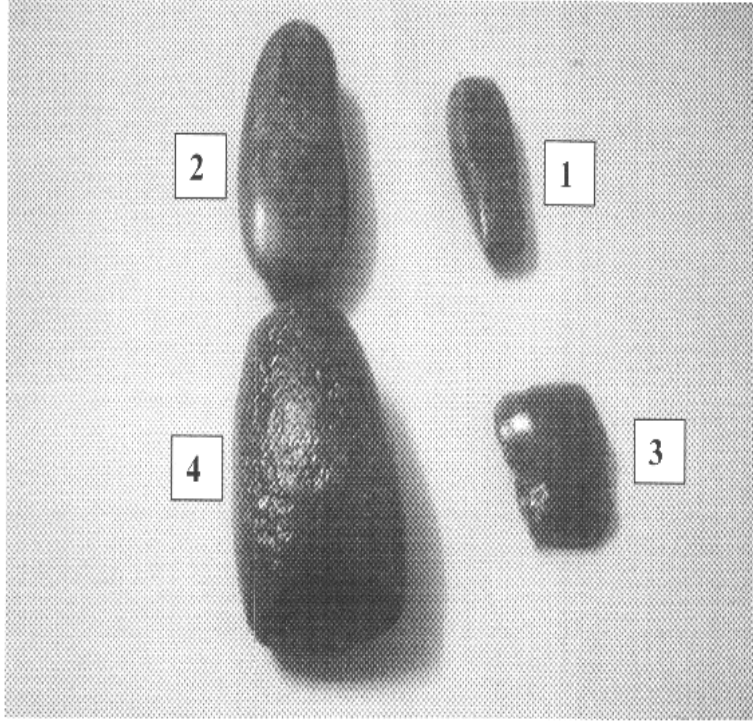
#### مكونات التنقيب:

" في شتاء 1948- 1949 قام النقيب - فيلالونجا- بفتح بعض التومولوس بهذه المقبرة الكبيرة بجرف التربة والتي يعود تاريخها حسب تعبيره إلى مرحلة ما قبل الإسلام. لقد عاش هذا الضابط سنوات عديدة بالقنادسة وبشار كضابط مكلف بشؤون الأهالي -(Officier des Affaires Indigènes)- وكان يهتم بما قبل تاريخ المنطقة حيث شجعه على ذلك الجنرال - كينار- قائد الغرب الصحراوي ببشار إذ سمح له باستعمال السيارات العسكرية واليد العاملة من الأهالي والمخزن." (33)

"في سنة 1964 عاد - هـ. لوط-(H.Lhote)- إلى بشار التي كان يتردد عليها وشجع الباحثين على الاهتمام بما قبل التاريخ في الصحراء والعودة إلى التومولوسات التي فتحها- فيلالونجا- لدراستها ووصفها وفتح تومولوسات أخرى متواجدة بمنطقة جرف التربة ووادي قير. وهكذا تم العثور على عدد من التومولوس من الجهتين لوادي قير بعضها نقب في فترات سابقة حيث يذكر -م. ليهورو-(M.Lihoreau)- أن إثنان يقعان في الضفة اليسرى للوادي حيث تتكاثر القبور في مساحة محدودة لفنا إنباهنا، ضريحان مهمان بهما آثار البناء بمحيطهما ويمتدان نحو الشرق بغرفة للميت - Une Chapelle - بعد زيارة الباحث - هـ. لوط- للمواقع طلب - غ. كامبس - Gabriel Camps - مدير مركز الأبحاث الأنثروبولوجية، ما قبل التاريخية والأنثولوجية (C.R.A.P.E). بمتحف باردو بالجزائر العاصمة آنذاك، طلب معلومات حول حجارة جرف التربة المتواجدة بالمتحف وحث العقيد- ليهورو- باستئناف الأبحاث والتنقيبات. والتي كما ذكرنا انطلقت في 14 أكتوبر 1966 إلى غاية 27 أبريل 1967. لقد تحقق هدف هذه الأعمال مع التنقيب في التومولوس رقم 5 الذي كانت غرفته تخفي ست حجرات مرسومة تمثل على الخصوص أحصنة من نفس النمط للحجرات التي عثر عليها النقيب - فيلالونجا- إن مجموع هذه السندات الملتقطة تشكل عينة حقيقية لتسليط الضوء على الطقوس الجنائزية لشعوب هذه المنطقة خلال فجر التاريخ. خلال فترة أشهر (أكتوبر 1966 - أبريل 1967) تم فتح وغرلة وفحص قبور 32 تومولوس، وإنهاء البحث والتنقيب في ثلاثة آخرين وأخذ مقاييس خمسة كانوا قد فحصوا من قبل. في المجموع تم إحصاء وتحديد موقع 75 تومولوسا في هذه المنطقة لوادي قير بجرف التربة." (34)

استنتج ل. بالو-(L.Balout)" أن قمة ازدهار العصر الحجري الحديث وجدت في الصحراء حيث احتوت على أدوات محلية مختلفة تمثلت في رؤوس السهام وتطور صناعة الحجارة المهذبة التي تبرز مدى صعوبة فن النحت إلى جانب النقوش وخاصة تلك الرسوم ذات الأهمية التي تجعلنا نقدر قيمتها الفنية ولا نهملها كونها وثيقة قيمة فريدة من نوعها" (35)

وقد اضمحلت حضارة العصر الحجري الحديث أمام الجفاف وزحف الصحراء مما أدى إلى هجرة إنسان الجنوب الغربي إلى مناطق توفر المياه منها ضفاف واد الساوره ومنطقة أوغارتا وواد قير وزوسفانا شمالا.



أدوات حجرية مصقولة من العصر الحجري الحديث  
(منطقة تابلالة)

- 1: محت مصقول  
2-4: فأسان مصقولتان  
3: مكشط



إحدى الصخور المرسومة المستخرجة من التومولوس رقم 5  
بمنطقة جرف التربة

\* LIHOREAU (Michel), DJORF TORBA nécropole saharienne antéislamique,  
p.68.

الهوامش:

- 1- BALOUT(Lionel), Quelques Problèmes Nord Africains de chronologie Préhistorique , Revue Africaine, n°92, 1948, p.255.
- 2- Aumassip (Ginette)- Le Néolithique en Algérie :Etat de Question, l'Anthropologie, T.91,n°02,Paris,1987,p585.
- 3- Hugot (H.J), Recherches préhistoriques dans l'Ahagar Nord-Occidental, 1950-1957,Paris,1963, p.100
- 4- Hugot,Opcit,p11.

- 5- CHAVALILLON (Jean), Etude Stratigraphique des Formations Quaternaires du Sahara Nord-Occidental (Colomb-Béchar à Reggane), Publications du Centre de Rech. Sur les zones arides, Centre Nat. de la Rech. Scient, Série : géologie, n° 5, Alger, 1964. p.189.
- 6- Ibid., pp 253-254.
- 7- Ibid., pp 271-272.
- 8- Ibid., p 250.
- 9- Ibid., pp 250-251.
- 10- BEUCHER ( Françoise), Etude Palynologique de Formations Néogènes et Quaternaires au Sahara Nord-Occidental, Centre de Rech. sur les zones arides, Série : géologie, n° 20, Edit. du Cent. Nat. De la Rech. Scient., Paris, 1975,p.243.
- 11- CHAVALILLON(J) Op.cit. p.251.
- 12- Ibid., p 251.
- 13- BOURCART (J.), Sur le gisement néolithique du Sahara algérien, l'Anth. T.38/1928, pp. 540-541.
- 14- GABRIEL (B.), Foyers Néolithiques et Paléocologie au Sahara, Centre.National.des Etudes.Historiques., Actes du colloque internat. Béni-Abbès, 1983, p.178.
- 15- BOURCART, (J.), Op.cit. pp.540-541.
- 16- Ibid., T.38, 1928, p.541.
- 17- BOURCART, (J.), le Néolithique Saharien, l'Anth .T.34, 1924, pp.186-187.
- 18- Ibid., T.38, 1928, p.541.
- 19- VERNEAU(M.), l'Anth., T.38, 1928, p.541.
- 20- Op.cit., J. CHAVALILLON, p 271.
- 21- غانم (محمد الصغير)، المحتوى التاريخي للرسوم الصخرية، المعطيات الجغرافية والمناخية، مجلة الأصالة، العدد 72، رمضان 1399 هـ / أوت 1979، ص.71.
- 22- ILIO (Youcef), Les peintures rupestres du Sud Ouest Algérien, Actes Colloque international de Maghnia, 27-30 novembre 1989, Centre National de Recherches Préhistoriques, Anthropologiques et Historiques Alger 2001, p 361.
- 23- LEROI-GOURHAN(A.), Dictionnaire de la Préhistoire,PUF, Paris, 2005, p.1060.
- 24- Ibid., p.1060.
- 25- Ibid., p.690.
- 26- ALIMEN (M.H), GUINET (Philippe) et POUEYTO (André), Nouvelles Stations de gravures rupestres dans le Sahara Occidental, Ext. Bul.S.P.F, XLIX, 1952, Separata A, n :° 3140, p.129.
- 27- ALIMEN (M.H.) et JOAQUIN (M.), Gravures rupestres de l'Oued Lacba, nouvelle station du Sahara Occidental , separata A, n° 3918, p.181.
- 28- Ibid., p.130.
- 29- JULIEN (Charles André), Histoire de l'Afrique du Nord, T.1,Tunisie, Algérie, Maroc, des origines à la conquête arabe (647 ap J.C.) 2em édition, SNED, Alger, 1975, p.48.
- 30- LIHOREAU (Michel), DJORF TORBA nécropole saharienne antéislamique, présenté par LHOE (Henri), éditions KARTHALA, 75013 Paris, 1993,p.14.
- 31- Ibid., p.8.
- 32- Ibid., p.9.
- 33- Ibid., p.13.
- 34- Ibid., p.14.
- 35- بالو (ليونال)، الجزائر في ما قبل التاريخ، ترجمة غانم (محمد الصغير)، دار الهدى، عين مليلة، 2005، ص.12.